قصة الغواص الذي نجا من العاص

الحاج جعفر المخرق: مدرسة العريض الأهلية كانت

■ الوسط - سعيد محمد

□ هي صورة ملفتة للنظر تلك التي يسردها عميد عائلة المخرق الحاج جعفر يوسف مكي المخرق حين يتحدث عن أطفال بين سن السابعة والعاشرة يجلسون في فصل دراسي فيه المسلم واليهودي والنصراني ولا يجدون في ذلك بأساً أو حرجاً أو عدوانية!؟ صورة الفصل الدراسي بمدرسة المرحوم الأستاذ إبراهيم العريض الأهلية لا تنتمي إلى مدارس اليوم... بل تعود إلى أواخر الثلاثينات من القرن الماضي حين كان ضيفنا الحاج جعفر المخرق يبحر بنا في حديث الذكريات... في زمن جميل!

ضيفنا المولود في العام 1922 بالعاصمة (المنامة)، وفي فريق المخارقة تحديداً حيث مرتع الطفولة والصبا والشباب، عاش في جو لربما يصعب أن يتوافر للكثير من الشباب في زمننا اليوم إن لم يمتلكوا فكراً حراً وثقافة تقبل الآخرين واحترام الآراء ووجهات النظر، تماماً كما هو الحال مع احترام الأديان والمعتقدات، ولهذا، وعندما كان في السابعة عشرة من العمر، أراد أن يكون عنصراً فاعلاً في ثقافة المجتمع، فشارك في تأسيس نادي العروبة في العام 1938 وهو إلى الآن يحمل العضوية الشرفية فيه... يتذكر ذلك المنزل الذي تم اختياره كمقر للنادي على شارع الشيخ عبدالله بالمنامة ملاصقاً لمجلس المرحوم الشيخ خلف العصفور، وفي غرف ذلك المنزل الأربع، كان المخرق ومجموعة من الشباب كعلي دويغر وحسن جواد الجشي ورضي الموسوي وإبراهيم الخياط وغيرهم من أبناء البحرين يحاولون رفد المجتمع بمساهمة ذات انطلاقة حماسية ثقافياً ورياضياً واجتماعياً.

الحاج جعفر المخرق يتحدث إلى «الوسط» — محمد المخرق

وفي أواخر الخمسينات، وتحديداً في العام 1957، كان الحاج جعفر المخرق يعد العدة للسفر إلى بريطانيا مبتعثاً من قبل وزارة الصحة مع دفعة من الموظفين الشباب ليتعلموا الإدارة في دورة تدريبية امتدت 9 أشهر، وهو حديث شيق لكن... لنتابع تفاصيله هنا:

رحم الله ملا عبدالعزيز

□ الحاج جعفر، سنبدأ من المدرسة الأهلية التي تعلمت فيها وهي مدرسة المرحوم الأستاذ إبرهيم العريض... ولنبدأ قبل المدرسة بالمرحوم الملا عبدالله الماحوزي فمن هو؟

– ولدت في العام 1922 في فريق المخارقة بالمنامة، وحينما بلغت سن الخامسة من العمر أخذني والدي لتعلم القرآن الكريم في المطوع المرحوم الملا عبدالعزيز الماحوزي وهو بالمناسبة مؤسس مكتبة الماحوزي بالمنامة، وكان رحمه الله رجلاً معلماً فاضلاً محباً للخير ويحبه أهل المنامة من كل الطوائف والطبقات، ومن بعد المطوع مباشرة تم نقلي في سن السادسة إلى مدرسة المرحوم الأستاذ إبراهيم العريض وهي مدرسة أهلية... مدرسة خاصة باصطلاحنا اليوم، وكان المرحوم العريض يدرسنا مع كوكبة من المعلمين الأفاضل المرحومين من أمثال الأستاذ رضي الموسوي والأستاذ حسن جواد الجشي، وللعلم كان هؤلاء المعلمون وغيرهم يعملون متطوعين في تعليم الطلبة بالمدرسة، والبعض الآخر بنظام المكافأة.

موقع مدرسة الأستاذ العريض

□ أين كان موقع المدرسة بالضبط حتى يتسنى للقارئ أن يعيش بيئتها آنذاك؟

– في المنامة... نهاية شارع الشيخ عبدالله وهي اليوم عبارة عن مبنى يواجه مباشرة المخبز الشرقي المتفرع على طريق الباخشة الذي يمر عليه موكب العزاء في عاشوراء... هو مبنى ملك المرحوم منصور العريض وقدمه للمدرسة مجاناً، وكانت المدرسة آنذاك تحوي فصلين فقط... للصغار المبتدئين وفصل آخر لمن هم أكبر سناً، وكنا نتعلم المواد الأساسية كاللغة العربية والإنجليزي والحساب والجغرافيا، وبالمناسبة، كانت تلك المواد قليلة لكنها مكثفة لذلك كان الطلبة يجيدون التحصيل بشكل أيسر مما لو كانت المواد كثيرة ومتعددة وثقيلة كما هو الوضع اليوم، وبقيت في المدرسة الأهلية حتى العام 1934 أي إلى إتمام الشهادة الابتدائية، وتخرجت من المدرسة ولي من العمر 12 عاماً، وبدأت في البحث عن عمل، في الوقت الذي كان فيه والدي يرفض فكرة الوظيفة، حكومية كانت أم غيرها، مع أن الوظائف الحكومية وقتذاك متيسرة لمن يحمل الشهادة الإعدادية ويتقن الكتابة والقراءة باللغتين العربية والإنجليزية، لكن الوالد رحمه الله لم يكن مشجعاً للوظيفة واصفاً إياها بإنها مقيدة للرزق، لذلك، فهو يشجعني على العمل الحر وكان من بين ما أراده لي أن أعمل كسائق تاكسي فهي أكثر حرية وربحاً...

علبة «العرانص» الأنيقة!

□ الحاج جعفر قبل أن نركب سيارة التاكسي ونذهب معك إلى حيث بدأت عملك دعنا نقف قليلاً عند ذكريات المدرسة... مَنْ من الطلبة تتذكر؟

– كلنا في المدرسة الأهلية أحباب وأصدقاء وأهل... عائلة المسقطي، العليوات العريض، كانو، القصيبي، فخرو وكل العوائل البحرينية، بل إنني أتذكر أن صديقي الدكتور جليل العريض اتصل قبل فترة قصيرة مضت طالباً أسماء الطلبة الذين كانوا معنا في المدرسة، وذكرت له قائمة ضمت 56 طالباً، وأريد أن أقول شيئاً مهماً وهي أن المدرسة الأهلية كانت تحتسب روبيتين شهرياً كرسوم (200 فلس)، وللعلم، كان الكثير من أولياء الأمور لا يدفعون الرسوم، بل أتذكر أن هناك 20 طالباً من الطائفة اليهودية معنا هم الذين كانوا ملتزمين بدفع الرسوم ولا يتأخرون، والمهم في الأمر، أننا منذ صغرنا عشنا هذا التواصل بين الأصدقاء المسلمين واليهود والنصارى والإيرانيين وغيرهم كلهم معنا في المدرسة نتعلم معاً ونلعب معاً... ودعني أقول لك إن بعض أولياء الأمور حين علموا بأن هناك مجموعة من الطلبة اليهود اعترضوا على الإدارة رافضين أن يكون هناك يهود يدرسون مع أولادهم فقال لهم الأستاذ إبراهيم العريض كما أتذكر: «إذا أردتم أن يتعلم أبناؤكم فأبقوهم في المدرسة مع زملائهم يدرسون!» وكان حازماً في هذا الجانب، فوجد البعض من أولياء الأمور باباً آخر فقالوا :»لا نريدهم أن يشربوا معنا الماء»... وهذه أيضاً من الأمور التي لم يكن يقبلها المعلمون... فلسنا في ذلك الزمان كما هو الوضع اليوم... تفرقة بين بني الإسلام... بين سني وشيعي.. وكذلك بين غني وفقير... وخائن وشريف وما إلى ذلك من مسميات كريهة للغاية... وكان أولئك المعلمون الأفاضل يقدمون قيمة الإنسان كإنسان، لا علاقة له بمذهبه وبما يؤمن من معتقدات وأفكار... فرفض البعض ذلك الكلام فما كان من اليهود إلا أن أبلغوا ذويهم فقاموا بإحضار إناء فخاري كبير وأنيق (حب)، ومعه كأس جميل من البلاستيك... بصراحة علبة أناناس (عرانص)... (يضحك)...: «وصار الأولي والتالي يشرب من ذاك الماي»...

النار والدخان... العريش يحترق

□ الله.. هكذا كان مجمع المنامة في العشرينات والثلاثينات وهو أمر يستدعي أن نحزن عليه اليوم؟ لكن يبقى البحريني الأصيل الطيب هو هو؟ متعاون... غير طائفي... قلبه نظيف؟ يعني مثلهم في ذلك مثل حريق العريش أليس كذلك حجي جعفر؟

– مجتمع المنامة من الناحية الاجتماعية في تلك الحقبة... العشرينيات والثلاثينيات إن تحدثت عليهم كصبي صغير، تكاد تكون هي الحالة العامة في المجتمع البحريني الهادئ الذي يعيش على صيد اللؤلؤ والزراعة وصيد السمك والتجارة، وهو الحال في عموم البحرين... لكن هي صورة جميلة أراها هكذا... بلاد هادئة مستقرة... فيها الفقير والغني، لكن لا تجد ذلك التمييز بين الغني والفقير، والفقراء كانوا يتواصلون مع الميسورين كما رأيت وعايشت أنا شخصياً، ولعلك لو سألتني عن مسقط رأسي فريق المخارقة، لقلت لك بأن ذلك الحي من العاصمة فيه الأيدي العاملة الاقتصادية لكل المهن: التاجر، البناء، النجار، الصفار، وإذا أراد أحد أن يشيد له منزلاً فكل العمال المهرة هنا في المخارقة... زد على ذلك أن معظم البيوت كانت مفتوحة طوال الوقت ولن تجد الحراس، ولربما أنقل لك صورة كانت تتكرر دائماً وهو اشتعال الحريق في البيوت المشيدة من سعف النخيل (العرشان)... وهي كما تعلم قابلة للاحتراق بفعل استخدام نار الطبخ أو إشعال موقد أو إنارة أو ما شابه، فتجد الناس تهرع مع بعضها البعض لإطفاء الحريق وإنقاذ حياة الناس، وليس هذا فحسب... بل ما هي إلا ثلاثة أو أربعة أيام حتى يقوم الجيران بتشييد العريش المحترق من جديد في أحسن حالة.

بالطبع أنت تعيدني إلى مكان في الذاكرة أحب الحديث عنه كثيراً، وهي منطقة فيها استئناس بالنسبة لي، فقد كنت أرى الناس تسعى لأرزاقها بنفسية طيبة كريمة، ويتجاور الغني والفقير... نعم ربما وجدت منزلاً لرجل ميسور مشيد من الطين والجص والنورة وحوله عرشان لمواطنين فقراء، لكن إذا جئت لطعامهم فترى الفقير يأكل الرز مع اللبن وكذلك الغني، وقد يأكل الأغنياء السمك ويحصل عليه الفقراء أيضاً... ولهذا كنت أقول، إنني أرى أن الإنسان لو كان يعيش في كوخ، ويعود من بعد الكد والمشقة في العمل إلى بيته مساءً ليضع رأسه على وسادته وينام مرتاح البال والضمير، فذلك أفضل من ثري ينام على في قصر على فراش ناعم من حرير لكنه لا يستطيع النوم من شدة التفكير والقلق.

«التسكام» ووقعة الغواويص

□ صدقت حاج جعفر... ولكن في أواخر الثلاثينات ولربما في العام 1928 أو في العام

نفس السنوات التي رسمت الطريق لي فيما بعد، لقد كانت سنوات على غاية من الأهمية، ففي خلالها شهد العالم نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩/١٩٤٥) وما أفرزته من آثار ومتغيرات في سائر أنحاء العالم القريب منها والبعيد.

ففي كل يوم كنا نسمع عن دول وبلدان غريبة، فضلا عن أسماء مدن، ومناطق، ونسمع بروز أسماء ورجال وقادة وزعماء وتتوالي الأحداث سنة بعد سنة ونسمع عن حرب فلسطين بين العرب واليهود، وقيام الكيان الصهيوني في الأرض العربية المقدسة، وإعلان قيام الجامعة العربية (١٩٤٥) واستقلال سوريا ولبنان وانتهاء الانتداب الفرنسي منها (١٩٤٦) والأحداث المتلاحقه من انتفاضات وثورات في أنحاء كثيرة من أقطار الوطن العربي حتى يصل عام (١٩٥٢) ونسمع عن قيام ثورة يوليو في مصر.

وأخيرا نسمع عن نشوء حركات سياسية في البحرين، هذه الأحداث تركت آثارا عميقة في نفوسنا، وفي نفوس الناس في البحرين، بل إنها خلقت أفكارا وتيارات جعلت مجتمعا صغيراً كالبحرين يموج ويمور بشتى التوجهات والمتغيرات.

في تلك السنوات كنت اسمع أحيانا ممن تتاح لي فرص اللقاء بهم من أصدقاء وزملاء، ومن الشباب المشهود لهم بالمعرفة والوعي، ما يتردد منهم من أقوال وأحاديث عن وجود أندية كانت قائمة في البحرين

■ ابريل 1964 مجموعة من اعضاء في زيارة الى منطقة العوالي ، للاطلاع على منشئات، على الدوي « بابكو » . جعفر المخرق، كريم محسن ، صلاح المدني، يوسف زياري، حسن المدني، طوي خلف، يوسف سيف البالسون احمد السقي ، سعيد السعيد ، هادي الحاي، محمد جعفر، عبدالرضا ، منصور محمد رضي

٢٢ - سعيد الصالح
٢٣ - محمد علي آل زبر
٢٤ - أيوب حسين
٢٥ - عباس علوي
٢٦ - شرف علوي
٢٧ - محمد جعفر العصفور
٢٨ - كاظم العصفور
٢٩ - عبدالله الزيرة
٣٠ - عبدعلي البحارنة
٣١ - السيد شرف السيد جعفر
٣٢ - السيد علي السيد سلمان
٣٣ - أحمد الكشاف
٣٤ - جعفر آل زبر
٣٥ - عبدالحسين الصفار
٣٦ - حسن العريض
٣٧ - عبدالمهدي العريض
٣٨ - حسن فضل
٣٩ - جعفر المخرق
٤٠ - محمد صالح الدلال
٤١ - جعفر العريض